قصّة قصيرة

كليل الشتاء أسود طويل

نيروز مالك

هذه الحكاية كانت أولى حكايات الجليل[1] الّتي رواها لي خلال معرفتي به فقال:

أخبرتني فاطمة قائلة: «كنتُ واحدةً من اللّواتي اهتممن بالمرأة الغريبة الّتي حطّت في بوّابة القصب، بعد أن سمعتُ عنها أخباراً شتّى وقصصاً وحكايات متنّوعة... فدفعني هذا إلى أن أراها شخصيّاً، لأنّ بعض النّسوة ذهبن إلى نعتها بـ «زوجة الشّيطان» فسألتهنّ: كيف؟ فأجبن: ماذا يمكن أن يُقال عن امرأة طويلة كشجرة سرو، تغطّي هامتها بالزّهور! وأمّا عيناها فلا لون لهما!. وأمّا عائشة فقالت برأيٍ قاطع: «بل لونهما أخضر». كذّبت نعيمة وقالت: «لا أبداً لونهما غريب!» سألتها: «كيف؟» فأجابت: «أنا لم أميّز لوناً لعينيها!» قالت امرأة أخرى، جديدة على الحارة: «أمّا ثيابها فعجيبة غريبة! ثياب لا شكل لها ولا طراز!». ضحكت عائشة وقالت: «ألم أقل لكم إنّها زوجة الشّيطان». ثمّ أضافت موضحة: «لأنّ الشّيطان وحده يمكن أن يكون له زوجة كهذه المرأة».

تابعتْ فاطمة بعد أن تعرّفت إلى المرأة، بأنّ ما يُقال عن «المخلوقة» غير صحيح أبداً! ثمّ وضّحت لي: «لقد رأيتها بعينيّ، إنّها امرأة عاديّة، وكلّ ما في الأمر أنّها جميلة جمالاً لا يوصف، وأعتقد أنّ هذا هو الّذي جعل النّاس يتحدّثون عنها بهذه الطّريقة الغريبة».

تابع الجليل حديثه: في أيّام الجُمَع ينطلق أهالي حارة «بوّابة القصب» و«ميدان الزّيزفون» وحارة «الجبّ» و«المغاير» إلى «سوق الجمعة»، فنزلتُ مثل بقيّة النّاس إلى السّوق لرؤية المرأة الغريبة... أسندتُ ظهري إلى شجرة الزّيزفون المنتصبة في وسط السّوق عندما رأيت تدافع النّاس على طرفي الطّريق. وتصاعد الهتاف والصّراخ فوق الرّؤوس، وانتشاره في السّماء القاتمة رغم أنّ الرّبيع كان قد بدأ يلوّن الأشياء بألوانه الزّاهية. كانت أصوات غامضة تأتيني من بعيد، أصوات غير مألوفة لي، مصحوبة بحفيف ناعم بعيد...

إنّها المرأة! زوجة...

- آه..

الشّيطان..!

آه...

وبدون إرادة منّي وجدتُ نفسي أتقدّم إلى الأمام مثل مئات النّاس الّذين تقدّموا باتّجاه المرأة. وقفتُ قريباً من الرّصيف المحاذي للطّريق الّذي تدرج عليه المرأة... رحتُ أنظر إلى حيث ظهرت. فتأمّلتها. لم تكن تختلف عن النّساء في شيء، إلّا أنّ فيها شيئاً مميّزاً، شيئاً لا تجده في الأخريات: قامة طويلة، أنف له استقامة وشموخ،

(١) حكاية من كتاب قصصي بعنوان ما رواه الجليل.

وأمّا العينان ففيهما انحراف غامض جميل تغطّيهما رموش طويلة. وشعرها كان ذا لون مزيج من الأسود والكحلي يتطاير إلى الوراء كسحابة تزيّنه زهور الجوري الورديّة. كانت باختصار القول، ذات جمال فريد لا يشبهه شبه...

تابع الجليل بعد أن بلع ريقه: ظلّ التّساؤل الّذي طُرح في حارة «بوّابة القصب» بلا جواب. من تكون هذه المرأة، ما سرّ مجيئها إلى هذه الحارة الفقيرة؟ كان النّاس يقولون: امرأة مثلها تستطيع أن تعيش في قصر من قصور حارة «أبي فراس» أو حيّ «الشّهباء»! فما الأمر الّذي دفعها إلى أن تعيش بيننا؟ ولكن التّساؤل لم يطلْ لأنّ الجواب انتشر ذات يوم في الحارة...

كانت «قمر» فتاة صغيرة تعمل في ورشة كبيرة للخياطة، وكان صاحبها بهاء الحلبي معروفاً باستقامته في خان السّبيل، وما يحيط به من الخانات الأخرى... ولهذا الأمر بالذّات لم تخَفِ الأُسَرُ من إرسال بناتهنّ للعمل في ورشته... ولكنّ «قمر» كانت غير البنات اللّواتي يعملن لديه... عذبة بشكل لا يتصوّره العقل، شفّافة بصورة لا تُصدَّق، رقيقة رقّة الحرير وأشعّة الشّمس في صباحٍ ربيعيّ.

ففي يوم اعتداء بهاء عليها كانت في الخامسة عشرة من عمرها... وقد تحدّثت قمر عن ذلك اليوم بكثير من الحزن والأسى، فقالت: «كان أقرب إلى أبي منه إلى صاحب ورشة، يرعاني، يقدّم لي كلّ ما يمكن أن يقدّمه أب لابنته...». تابعت وهي تتذكّر: «عندما كنت ألتفت إلى البنات وأسألهنّ، إن كان المعلّم بهاء يمدّ يده إلى صدورهنّ؟ كانت الفتيات يضحكن وهنّ يخفين وجوههنّ في ثيابهنّ المزهرة. وأمّا اللّواتي يكبرننا بعدّة سنوات فكنّ يجبن، نعم يمدّ يده، ولكن ليس إلى صدورنا، وإنّما إلى... ويغرقن في الضّحك.» ذات يوم، تتابع قمر ذكرياتها، «في ساعة عصريّة، ونحن نستعدُّ للانصراف، بعد أن انتهينا من العمل، طلب المعلّم بهاء أن أصعد إليه، في الطّابق الثّاني من الخان. طبعاً كثيراً ما كان يطلب منّي أو من الفتيات الأخريات ذلك. وقد كان الصّعود إليه من قِبَلِنا أمراً عاديّاً تماماً. أمّا عندما ذهبت رفيقاتي وبقيت وحدي، وأنا أصعد إليه في الطّابق الثّاني من خان السّبيل، فشعرت بخوفٍ ورهبة لم أعلم مصدرهما...».

تابع الجليل وصف صعود قمر إلى المعلّم بهاء الحلبي: كانت السّاعة تقارب الخامسة، وأصوات خطوات الأقدام وأحاديث النّاس ماتزال تأتيها من الزّقاق عبر الباب الخشبيّ الكبير للخان... وفي الطّابق الثّاني حلّقت قمر في الفضاء من الدّهشة. نعم، طارت فوق أوراق شجرة التّوت فراحت تتعلّق بأغصانها الخضر المذهّبة. شعرتْ كأنّ أحجار الخان القديمة قد أصبحت وسائد ليّنة تحت قدميها! وأمّا الأبواب المنتشرة على طول السّور الخشبيّ المزخرف فكانت مغلقة إلاّ واحداً في آخر الممرّ الّذي يقودها إلى المعلّم بهاء... وجَدَتْ نفسها بعد خطوات أمام عتبة الباب المفتوح... صعدت إلى أنفها رائحة ليست ككلّ الرّوائح! رائحة نكهة خاصّة. التفتتْ إلى يمينها: رواق طويل مزيّن بسجّاد خمريّ اللّون، موشّى بلون بنّي فاتح، وأمّا القناديل المعلّقة بالسّقف الدّاكن فكانت من زجاج قديم مصنوع بطريقة يدويّة. ظلّت قمر مندهشة ممّا تراه من حولها، وهي مستمرّة في سيرها إلى بهاء الحلبي.

كان الرّواق ذا أعمدة صامتة، ساكنة تمتدّ على جانبي الحائط. أمّا المعلّم بهاء فكان جالساً وراء طاولة خشبيّة مزيّنة بألوان بنّيّة وصفراء وخضراء. شعرت قمر للوهلة الأولى بأنّ المعلّم يخرج من بين خشبها، يطلّ برأسه الكبير الشّائب من فوق صفحتها البرتقاليّة، فأحسّت برجفة في كيانها، ثمّ ما لبثت الرّهبة أن أعقبت رجفتها المستمرّة. كانت والمعلّم وحدهما. تطلّعت إلى ما فوق رأسه، فرأت مصباحاً كازيّاً للزّينة معلّقاً على الحائط وراءه. وقفت قمر وهي تنظر إلى عينيه... استغربت عندما رأت بسمة على وجهه، لأنّ الابتسام ليس من عاداته... كانت يداه ممدودتين أمامه على صفحة الطّاولة الخشبيّة، وأصابعه العشر الشّمعيّة اللّون تتحرّك كأنّه يداعب حبّات مسبحة أو قطعة نقود ذهبيّة، يفركها بكثير من المحبّة والألفة... شعرت قمر بشيء من الدّوران، ولكنّها ظلّت تنظر إلى عينيه الضّائعتين بين جَفْنَيْه السّميكين وهي تتقدّم إليه...

تابع الجليل حكايته لي: أخبرتني قمر عن معلّمها بهاء: «كان وديعاً، هادئاً، يغالب في نفسه أمراً ما، يريد أن يقول شيئاً ما. كانت شفتاه الغليظتان تتحرّكان إلى الأمام كأنّه يدفع بشيءٍ من داخل فمه إلى خارجه. طلب منّي أن أقترب منه وهو ينظر إلى صدري. فعلتُ ذلك. في تلك اللّحظة شعرتُ أنّني لا أخاف هذا الرّجل الشّيخ الّذي يعجز عن الوقوف.

هل أنت سعيدة؟ فأجاني بسؤاله. نعم أجبته.

هزّ رأسه الكبير الشّائب وطلب أن أقترب منه أكثر. ثمّ سألني: في أثناء صعودك، هل رأيت تلك الأغصان الملتفّة حول جذع شجرة التّوت؟

استغربتُ سؤاله، ولكنّي قلت له: نعم...

قال: اجلسي إلى جانبي . . .»

جلستْ قمر - يتابع الجليل وهو ينظر إلى وجهي بأسى - إلى جانبه وهي تشعر بالشّفقة لأجله. فقالت لنفسها: «إنّه شيخ لا غير: شعر أبيض، لحية بيضاء، وثوب أبيض طويل. كان أشبه برجل في كفن. كان لوجهه لون الشّمع، وفي عروة ثوبه وردة قرمزيّة». وقف أمام قمر بعد أن اتّكأ على كتفها، ثمّ مال عليها وطلب منها أن تتقدّمه نحو الغرفة الدّاخليّة. شعرت قمر بأنّها وقعت في فخّ. شعرت بأنّ جميع الأبواب قد أُغلقت ولم يعد للنّوافذ زجاج بل خشب قديم يفصلها عن الحرّيّة. وأمّا المعلّم بهاء الحلبي فقد انقلب شابّاً في العشرين، كأنّه أفعى سلخت جلدها، جدّدت حياتها، فانتزع عن رأسه شعره الأبيض المستعار ليبرز شعره الأسود الخشن. وأمّا تقاطيع وجهه الشّمعي فلم تكن إلاّ تقاطيع قناع خلعه فظهرت قسماته الشّابة بعينين ذَواتَيْ نظرات ناريّة. ثمّ مدّ يده لا إلى صدرها، كما كان يفعل فيما مضى من الأيّام، وإنّما إلى مكان لم تفصح عنه الفتيات ساعة سؤالها إيّاهُنَّ عن ذلك. . . تابعت قمر وهي متكسِّرة الصّوت: «وهكذا لم أخرج من خان السّبيل في ذلك اليوم إلاّ في السّاعة السّابعة. خرجتُ ودمعي لم ينشف بعد على خدّي. كان الجوّ في الزّقاق رماديّاً، ما بين العصر والمساء، كلّما تركت زقاقاً ورائي، أشعر بأنّه أضيق من الّذي سبقه. وأمّا السّماء من فوقي فأصبحت أصغر وأصغر».

تابع الجليل يسرد عليّ القصّة: ففي ليالي الشّتاء الأولى، حيث الأشجار تميل برؤوسها حتّى تلامس الأرض بفعل الرّيح العاصفة، كان مروان الحلبي يزور زوجة أخيه بهاء الصّغيرة. وكانت قمر، في تلك الأيّام معجزة في جمالها، معجزة بأزهارها القرمزيّة والبيضاء بثوبها الأسود الموشّى بالذّهب وهو يمتدّ وراءها ذيلاً طويلاً كأنّه مذّنب نورانيّ.

كان القصر الّذي أسكنها فيه بهاء الحلبي، معلّمها السّابق وزوجها الحالي، أشبه بالجنّة. . . ولم يكن لها خيار سوى الزّواج منه بعد الّذي حصل. ولم تمضِ أيّام على زواجها، حتّى عادت قمر إلى طفولتها، عادت إلى الأيّام الّتي كانت تبكي فيها لأنّها لم تحصل على قطعة لبان، أو لم تنل لعبة رأتها في واجهات المحلات الّتي تبيع اللّعب. . . ومع مضيّ الوقت أصبح القصر بالنسبة لها سجناً، فأخذت تخرج من بين أسواره إلى الحديقة الملحقة به، حيث الأشجار وظلالها والزّهور وروائحها، تنام، تلعب، تبني بيوتاً من الرّمل، سعيدة بألعابها، لم تشعر بتعاسة إلاّ في تلك السّاعات الّتي كان زوجها يناديها فيها أن تصعد إليه، فتنفض التّراب عن ثيابها، تمسح يديها من أصباغ الأشجار والزّهور، تلقي شعرها إلى الوراء، تتركه ينسدل على ظهرها وتصعد إليه. . .

كانت تشعر بموات في نفسها عندما تجد أمامها شيخاً بثياب بيضاء وشعر مصبوغ بحنّاء قاتمة اللّون وهو يبتسم ويقدّم لها هداياه واحدة إثر أخرى. كانت قمر تستغرب منه فتقول له: «أنا لم ألبس بعد الثّوب الّذي جلبته لي البارحة فكيف لي بهذا الّذي أتيتَ به اليوم؟» كان بهاء الحلبي يكتفي بالابتسام وهو يشدّها إلى حضنه ويسألها، إن كانت تحبّه؟ كانت قمر كلّما سألها هذا السّؤال تشعر برجفة في نفسها فتطرق برأسها وهي لا تعرف بما تجيبه، فتبتسم له ببراءة وتسأله: «كيف يكون الحبّ؟ هل هو رجل أم امرأة؟ هل هو زهرة؟ أم غصن مثقل بأوراق خضراء؟» لم تجد قمر لدى زوجها جواباً، وإنّما كانت تجد في عمق عينيه مرارة ويأساً. . .

يتابع الجليل: عندما أخبرت قمر مروان شقيق زوجها الصّغير بذلك، تجهّم وجهه وقال: «اللّعنة عليه، إنّه شيخ ذهب الخَرَف بعقله!» كانت قمر تضع يديها على فمه وتطالبه أن لا يتحدّث بهذا الكلام القاسي عن أخيه الأكبر. فيضحك، ثمّ يمدّ يده إلى عنقها، يشدّ على منابت شعرها برفق ويطلب منها أن تقوم. كانت تفعل وهي تختلج تحت أصابعه وتركض معه بين أشجار الحديقة، تختبئ بين الحشائش عن عينيه. كان مروان الحلبي يبحث عنها وينادي عليها: قمر، قمر، قمر. . . كانت لا ترد عليه، لأنّها تستعذب نداءه فتلتزم الصّمت ولا تخرج إليه حتّى يصبح لصوته بحّة بكاءة، فتطلع إليه فاردةً ذراعيها وثوبها يتطاير من ورائها إلى الخلف. كانت تمسك بيده وتدور حوله وهو يدور حولها، يضحكان، يبتهجان، يفرحان طويلاً وهما يمرّان بين الممرّات الحصويّة البيضاء المتوغّلة بين الحشائش الخضر الغامقة الموشّاة بالزّهور. كانا يميلان الواحد منهما على الآخر، يختلط شعرها الأسود بشعره البنّي المفلفل، تتساقط نظرات عيونهما وترتبط، ثمّ تنعقد وتتشابك لتصبح نظرة واحدة. كان يدور حول نفسه وهو يرفعها على يديه، يطير بها إلى السّماء السّابعة لتتهادى معه فوق الأشجار. أخذا يمدّان أياديهما في الرّمال الباردة الصّفراء الشّاحبة، يغوصان بأقدامهما في الماء المتدفّق في النّوافير. . .

تابع الجليل حديثه: وفي اللّيل يا صاحبي، عندما كان زوجها بهاء يأتي إلى البيت محمَّلاً بالهدايا، يطلب منها أن تصعد معه، فتفعل وفي قلبها سكّين. يطلب منها أن تجلس على «المرمرة» الرّماديّة، ثمّ يذهب في نشر الأثواب أمامها، ويقول: «اخلعي عنك الثّوب»، ثمّ يطلب منها أن ترتدي الثّياب الجديدة الّتي جلبها ثوباً

بعد آخر. كانت تفعل، فيصرخ كلّما ألبسها واحداً: «آه يا فراشتي الحمراء اللّون!» وتخلع آخر: «ها أنتِ أصبحتِ بهذا الثّوب طيراً من طيور الجنّ». ويردف: «آه ما أحلاك في هذا الثّوب الأزرق السّماويّ».. ثمّ يهتف بها: «انتظري لا تخلعيه عنك الآن». ويطلب منها: «دوري به أمامي، دوري حتّى يطير، أسرعي أكثر في دورانك، ليرتفع الثّوب إلى الأعلى، دعيه، لا تتوقّفي، لا تتوقّفي، قلت لك لا تتوقّفي»...

ولكن قمر كانت تقول باحتجاج حزين: «لم أعد أحتمل الدّوران، أنا أدوخ، أكاد أن أتقيّأ»...

يقاطعها بهاء الحلبي: «لا يهمّ. قليلاً من اللّيمون سينعشك، فقط ما أطلبه منك مقابل هذه الأثواب هو الدّوران، دوري، أريد فقط أن أرى»..... ويهجم عليها، يصفعها والزّبدُ الأبيضُ يغطّي فمه، يلهث، يضع يده على صدره ويسقط على الأريكة، تركض إليه، ترفعه وهي تموت من الخوف. كان الزّبد يخرج من بين أسنانه، يغطّي فمه وهو مغمض العينين، مضطرب الصّدر، مرتجف الأصابع، ثمّ تراه يهدأ ويغوص في فَرْو أبيض مشوب بلون الرّماد، فيختلط شعره بفَرْو البساط.

كانت قمر تخبر مروان الحلبي عن ذلك وهي تبكي على صدره، فيربت بأصابعه الطّويلة النّاحلة على كتفها ويطلب منها الكفَّ عن البكاء، يطلب منها التّقدّم منه ليلعبا... فتضحك له وتنسى العالم كلّه...

تابع الجليل: كانت قمر تهجم عليه فيفرّ منها كأيّل رشيق، يقفز من طرف البركة إلى الطّرف الثّاني والثّالث والرّابع. يقف قليلاً، يصفّر لها، فتهجم عليه ثانية، تمسكه من طرف قميصه، تشدّه فيتمزّق القميص، تسمع لتمزُّقِهِ صوتاً، ثمّ يسقطان معاً على الحشيش في حديقة القصر يلهثان معاً... كانت قمر تتساءل: «لماذا نلهث رغم أنّنا لم نتعب بعد؟ لماذا يرتفع صدرانا إلى الأعلى، الأعلى، فيصطدم صدري بصدره فأشعر لذلك بكهربة في جسدي، أدفع نفسي إلى الوراء، أستندُ بيدي على يده لأدفع جسدي إلى الخلف باتّجاه اللّون البنّي الّذي يغطّي أطراف السّجادة، أحسُّ بأصابعه تتوغّل بين أصابعي، أشعر بكهربة تسري إلى ساعدي، تهزّ كتفي، تخضّ صدري، تخضبه...» تبتعد عن مروان، تتراجع عنه، تخوض بين الزّنابق لترتفع الأعشابُ والأوراقُ والأشواقُ، ترتفع حتّى تصبح ثقلاً لا تستطيع تحمّله، فتنهار بين يدي مروان، ترتدّ لتغوص...

تابع الجليل وهو ينظر من فوق رأسي إلى البعيد: راحت قمر ترشف من ماء الحياة، تأكل من ثمارها، تنام بين طيّاتها... فأحسّتْ بشعرها الطّويل يلتفّ بشعر مروان، يتوغّل فيه، يتوسّد خصلاته الغامقة، يزحف إلى أطراف جبهته الورديّة، يتمرّغ هنالك بين تجاعيده، يبتلّ بالعرق المالح ذي الرّائحة النفّاذة. وأمّا يدها فتندفع إلى صدره، ترتطم بالمساحات السّوداء فتسمع رنيناً لارتطامه، تتخاذل، تلتوي قدماها تحت ثقل جسدها، تنثنيان، تنثنيان، تنحدر على البساط الماعزي الأسود، تحسّ بشعر صدره يغطّي صدرها، وبأنفاسه تلهب عنقها وبصوته العذب يفحّ بأعذب الكلام. تقول قمر: «كنت أشعر بسعادة قويّة جدّاً، فأغمض عينيّ، أرى يديّ بين الزّرقة، أدفع قدميّ إلى الأعلى فينسكب الورد الجوريّ الأحمر، تلمع الألوان في كلّ الاتّجاهات». تتابع قمر وهي تبكي: «تتمزّق الأوراق، تنفتح على رأس ذي شعر مصبوغ بالحنّاء، جاحظ العينين، وفي يده تلمع سكّين رهيفة النّصل فأصرخ بأعلى صوتي: مر..و..ا..ن..».

تابع الجليل:

ولم تمرّ أيّام يا صاحبي، حتّى بدأ النّاس بنسج الحكايات عنها. منّا مَنْ صدّق تلك الحكايات، ومَنْ لم يصدِّقها.

وأمّا ما وصلنا من بقيّة حكايتها فكان مرعباً عندما وقفتُ إلى جانب فاطمة، مسنداً ظهري إلى شجرة الزّيزفون، أنظرُ إلى قمر، أنظر إلى ثوبها الأسود الموشّى بالورد الأحمر، أنظر إلى ذيل ثوبها الطّويل الّذي يفترش الطّريق وراءها، أنظرُ إلى إكليل الزّهور البرتقاليّة والزّرقاء الّذي يزيّن شعرها، أنظر إلى عينيها الواسعتين... وعلى المنحدر الّذي نزلت عليه قمر كان الخوف يرافقها، يكبر معها ولا يموت وهي تنظر بعينين خائفتين إلى الأمام، تراقب أطرافَ الألوان وهي تتداخل وتمتزج، وما يلبث اللّون الأحمر أن ينبثق بعد أن يلمع وهجٌ يخطف بصرها، لأنَّ ما وصل إليها عن مروان كان مرعباً، وحشيّاً... وصلها، أنّ زوجها قد انتزع لحم أخيه عن عظمه وقدّمه طعاماً للكلاب، وقد أقسم بأنّه سيطعم لحمها للكلاب أيضاً كما أطعم لحمَ مَنْ كان أخاه!

تابع الجليل بصوتٍ خافت أسيان: كانت قمر تنتفض من نومها فتقوم فزعةً إلى النّافذة لتنظر إلى اللّيل المخيّم على «بوّابة القصب» حيث تتلاشى أنوار النّجوم وضياؤها بين طيّات اللّيل الغامض المخيف.

(سوريا)